طعام الموتى والوليمة الجنازية في تدمر

بقلم

هنري سيريغ

(خلاصة عن المقال المنشور في القسم الغربي من المجلة)

تمثل المشاهد المنحوتة في المدافن التدمرية غالباً ، امرأة تقوم بحركة عزاء رمزية ، وذلك أنها تضع ذراعها حول عنق الميت الممثل . وترينا بعض المشاهد هذه الصورة على شكل تام . ففي متحف دمشق لوح منحوت عثر عليه في قبر يرحاي ، وهو يمثل صورة نصفية لامرأتين ، تضع إحداهما ذراعها حول كتفي الثانية ، وتحمل بيدها كأساً مملوءاً بمادة ترتفع على شكل القبة . وهذه المادة هي ولا ريب ، طعام جنازي كان يجعله أقارب الميت في القبر .

وفي لوح منحوت آخر محفوظ في جامعة بيروت الأميركية مثل هـذا الطعام . اذ يشاهد فيه أن المرأة حاملة الكأس ، لها صدر مكشوف تظهر عليـه آثار الجراح . وكذلك فإن متحف (ني — كار لسبرغ) في (كوبنهاغ) يحوي لوحاً آخر يمثل المرأة المعزية وهي تحمل الكأس المذكور ، وصدرها مكشوف ، وثديها ظاهر .

وقد ظننا أنا والمسيو آمي سابقاً ، أن الكأس يحوي رغيفاً منتفخاً . بيد أن هذا الظن غير صحيح ، لأن لوح (ني — كار لسبرغ) يمثل القبة التي تملأ الكأس وعليها أشكال صغيرة بيضوية منقوشة بعناية فائقـة ، وهي تشبه حبات اللوز التي تزين بهـا بعض الأطعمة الشرقية . ومن هذه الأطعمة طعام خاص ، حافظ على صنعته الجنازية الى وقتنا الحاضر في

كل بلاد الشرق ، ولا سيما عند المسيحيين من الروم الارثوذكس . وهو ما يسمى بالعربية (سليقة) ، وبالاغريقية (كوليفا) .

والـ (سليقة) والـ (كوليفا) من القمح المسلوق . والأولى أكثر ميوعة من الثانية التي يمكن اعطاؤها بسهولة أي شكل من الأشكال . ولا ريب أن هذا الطعام البسيط قديم ، وأنه يمزج بالسكر والقرفة ، وتجعل على وجهه حبات اللوز والفستق والرمان ، وقطع السكر الملونة وغير ذلك . غير انه لا يؤكل يوم الدفن بل في ايام الذكرى والمواسم بعد الوفاة ، ولا سيما في اليوم الأربعين . ويظهر ان الأمر في تدمر كان يقضي بتقديم هذا الطعام في يوم الجنازة ، لأنه كما ذكرنا مقترن بحركة المرأة المعزية .

وأظن أن بعض القراء يحسبون بعد الاطلاع على هذه الملاحظات ، أن طعام الموتى الموصوف يمكن أن يرى في كل مشاهد الولائم التي تنتشر بكثرة في المدافن التدمرية ، والتي كان معناها واضحاً عند الأقدمين . ونحن نجهله الآن . فهل تمثل هذه المشاهد الأموات وهم يأكلون رمزياً الطعام الذي حمله اقرباؤهم الى القبر ؟

إن هذا غير محتمل . وعلى الرغم من أن الكؤوس التي يحملونها تشبه الكؤوس المذكورة فان ما يوجد فيها سائل ولا يرتفع متخذاً شكل القبة كما كان الأمر في المشاهد السابقة ، وأكبر الظن أن الموتى المضطجعين الذين يشاهدون في كثير من التماثيل والألواح التدمرية المنحوتة ، أريد أن يجعلوا في أوضاع الشاربين والمشتركين في الولائم وعلى هذا فان سلسلتي الصور المتقدمتين مفترقتان . ولا يمكن تفسير احداهما بالاخرى .

* * *

وليس المراد في هذا المقام دراسة المعنى العام لمشاهد الولائم في النحت الجنازي لدى الأقدمين . لأن هذا المعنى تغير بتغير الأمكنة والعصور . ومع ذلك فليس من الفضول أن نتساءل أي معنى ذهب التدمريون اليه بتمثيلهم صورهم الجنازية الكثيرة ؟ . وقد أجاب (فرانز كومون) على هذا السؤال ، إذ قال : « يظهر أن هؤلاء الموتى المضطجعين الذين يحملون الكؤوس بأيديهم ، هم من الكهنة لأنهم يضعون القلنسوات الكهنوتية المخروطية على رؤوسهم . كما أن الأطعمة الجنازية التقليدية كانت تحتل في ديانة المعابد التدمرية مكانة أبانت أهميتها الحفريات الحديثة . فاتضح من ذلك أن ديانة تدمر السامية تقيم نفس العلاقات الصوفية التي تقيمها احتفالات (باخوس) بين الوليمة الدينية ، والوليمة الخالدة . ولا يخفى أن الأولى تهيئة للثانية » .

ومن الثابت أن الولائم الدينية كانت شائعة في تدمر . ويدل على ذلك الأماكن الخاصة التي كانت لها في معابد المدينة ، وصورها الموسومة على قطع الفخار الصغيرة المعروفة باسم (Tesséres) ، وأخبارها التي تذكرها الكتابات التدمرية . بيد أن كل هذا لا يسمح لنا بالقول ، ان الولائم الجنازية ، ولو اشترك بها الكهنة ، هي ولائم كهنوتية . ولو سلمنا جدلا وقلنا انها ولائم كهنوتية ، فانها على كل حال ولائم عائلية تحضرها دوماً امرأة المتوفي وأولاده . والخلاصة ان الوليمة الكهنوتية والوليمة الجنازية مفترقتان ولا تفسر الواحدة الأخرى. ولا يعرف اذا كانت الوليمة الكهنوتية تهيء المدعوين للحياة المقبلة عند التدمريين . والملاحظ أنها كانت شائعة في كل الديانات . أما الوليمة الجنازية فلا يوجد أقل دليل على أن حوادثها كانت تجري في الحياة الأخرى ، لأن جميع مظاهرها مدنية . ولا يتهيأ أي أثر من الآثار التدمرية الكثيرة لأن يقدم لنا برهاناً على أنها كانت دينية . ولم يعثر في هذه الآثار على اشارة آلهية مثل ثعلب (أنوبيس) أو صقر (هوروس) اللذين كانا يمثلان تحت أرجل الموتى المصريين . ولم يوجد في أشكال الموتى على ما يدل على أنهم ارتفعوا الى سوية الأبطال . فلماذا اذن يريد بعض الباحثين تحميل النحاتين التدمريين القدماء نوايا لم تكن لهم . ولم يكن هؤلاء يضنون باظهار نواياهم . إذ أن في بعض القبور التدمرية صوراً رمزية . غير أن هذه الصور ، لم تمتزج قط بعناصر الوليمة الجنازية .

وليس من المحتمل أيضا الا تمثل الولائم الجنازية التدمرية الا الموتى فقط . وقد ذكر (ج . ب . شابو) معتمداً على دراسة النصوص التدمرية ، أن صور الأحياء تختلط بصور الأموات في هذه الولائم . ولا ريب أن اليقين المطلق في ذلك يحتاج الى دراسة جدية خاصة . غير أنه يلاحظ أن الزوجة توجد دوماً في الولائم الجنازية الى جانب زوجها . وهذا لا يدل أنها في كل الحالات سبقت زوجها الى القبر .

وصفوة القول ان كل الدلائل تشير الى أن الوليمة الجنازية التدمرية هي صورة أرضية وعائلية . ويبدو فيها رب العائلة والأم والأولاد في عمل حبيب وأليف ورسمي يدل على حياة الأسرة المشتركة . ويلبس فيه الرجال ثيابهم الثمينة وتتزين النساء بحلاهن ، ويصطفون جميعاً على التخوت الجميلة . ويتمم هذا الترف أحياناً الخدم والكؤوس الفضية وما شاكل ذلك . وهو ما كان يحرص على اظهاره البورجوازيون أصحاب القوافل الذين كانوا يؤلفون الطبقة الحاكمة في تدمر . ولو أن الوليمة الجنازية كانت تمثل الموتى وهم ينعمون باللذات المادية في العالم الآخر لأمكن مشاهدة صورها لا في قبور الأسر التدمرية الغنية الضخمة فحسب ، بل على شواهد

قبور فقراء التدمريين الذين كان يحق لهم هم الآخرون ان يأملوا بعد وفاتهم بمصير يشبه مصير الأغنياء .

ثم أن النحت الجنازي التدمري لا يمثل الموتى في غير المشاهد التي رأيناها ، اللهم الا في مشهد الرحيل الى الصيد . ولدينا نموذج واحد من هذا الموضوع ، منحوت في تخت مدفن (مقاي) حيث يرى في التابوت الأوسط ، الثري (مقاي) في لباس ثمين مع خادميه اللذين يقود أحدهما الحصان ، ويحمل الثاني اليه الجعبة المملوءة بالسهام . أما التابوتان الجانبيان فانهما يمثلان الخدم وهم يحملون ما يلزم للوليمة وللمدعوين المضطجعين على الأسرة والماسكين للكؤوس . ولا ريب أن الوليمة هنا لو كانت في العالم الآخر لوجب أن يكون الصيد كذلك . وهذا غير ممكن . ثم ان وجود هذا المشهد في هذه الآبدة التي هي من أجمل الأوابد التدمرية ، يجعلنا نرى فيه فصلاً من حياة رجل تدمري منعم . واذا صح ما ذهبت اليه لوجب أن يقوى شعورنا بصفة الوليمة الجنازية التدمرية التي هي عمل انساني ومدني وغير كهنوتي أو آلهي .

تلخيص وتعريب الحوليات الأثرية